تجليات الممارسة النقدية الثقافية في الفضاء العربي: نقد للثقافة أم نقد ثقافي؟

The Manifestations of Cultural Critical Practice in the Arab Space: A Criticism for Culture or a Cultural Criticism?

د. نوال قرين[*.1]

جامعة قاصدي مرباح -ورقلة، (الجزائر)، nawal_krine18@yahoo.com

تاريخ الإيداع: 2023/04/01 **تاريخ المراجعة**: 2023/12/28 **تاريخ النشر**: 2024/03/30

ملخص:

يُعدُّ النقد الثقافي فعالية نقدية لها مبادئها النظرية وأسسها المنهجية، رغم أنّها تنهل من حقول معرفية مختلفة ومتباينة، في حين أنّ نقد الثقافة يقوم أساسا على اعتبار الثقافة مجالا للدراسة؛ إذ لا يتوقّف عند حدود النصوص الأدبية. وعلى ذلك وجب التقيُّد بالأطر المنهجية لكلّ مجال معرفي، لكنَّ سِعة مصطلح (الثقافة) و شموليته، جعل مجالاتها تتداخل، وعسَّر رسم حدود المجال المعرفيّ الواحد، خاصة مع بروز فكرة البينية في الدراسات النقدية المعاصرة.

لذلك وجدنا من الباحثين من يجمع بين الممارسة النقدية التي يقدّمها عبد الله الغذّامي ومالك بن نبّي، وحتى نقاد الأدب من مثل مصطفى ناصف تحت رداء الدراسات الثقافية في عمومها والنقد الثقافي خاصة، بل هناك من يقرنه برايموند ويليامز غربيّا.

فهل تلك الممارسات الثقافية التي قدّمها مالك بن نبي ومصطفى ناصف وعبد الله الغذّامي تدرج كلّها تحت مسمى النقد الثقافي؟ أم أنّها نقد للثقافة؟ وما حدود التماس والافتراق بينهما؟

الكلمات المفتاحية: نقد الثقافة؛ النقد الثقافي؛ مالك بن نبي؛ مصطفى ناصف، عبد الله الغذّامي، الثقافة.

Abstract:

Cultural criticism is considered a critical activity that has its own theoretical principles and methodological foundations although it draws on distinct fields of knowledge. Cultural criticism is based mainly on considering culture as a field of study, which does not stop at the limits of literary texts. Accordingly, the methodological frameworks for each field of knowledge must be adhered to. However, the breadth and comprehensiveness of the term "culture" have led its fields to overlap, and have made the demarcation of the boundaries of a single field of knowledge difficult to draw, especially with the emergence of the idea of interdisciplinarity in contemporary critical studies. Therefore, some researchers were found to combine the critical practices presented by Abdullah Al-Ghadami and Malik bin Nabi, and even literary critics such as Mustafa Nasif, under the rubric of cultural studies in general and cultural criticism in particular, and there are even some who associate it with Raymond Williams in the West. Are those cultural practices presented by Malik Bennabi, Mustafa Nassef and Abdullah Al-Ghadami all listed under the name of cultural criticism? Or is it a criticism of culture? What are the similarities and the differences between them?

Key words: *criticism for culture; cultural criticism; Malik Bennabi; Mustafa Nasif, Abdullah Al-Ghadami; the culture*

*المؤلف المراسل..

1. مقدّمة:

وُسِمَ النّقد الثّقافي عند المشتغلين عليه، والباحثين فيه بتسميات متعددّة، نتيجة الاختلافات في المرجعيّات وأيديولوجيتات والتوجّهات الفكرية للدارسين؛ حيث يضاف إلى التّسميّة التّي برزت عربيّا من خلال كتاب " النّقد الثّقافي، قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة" لصاحبه "عبد الله الغذّامي" وغربيّا كسمة لكتاب "فنست ليتش": "Critic Cultur"، تسميّات أخرى لهذا التّوجّه ما بعد الحداثي، على غرار "النّقد الحضاري" كما هو الحال لدى "هشام شرابي"[1] و" النّقد الفلسفي" أو "النّقد الفاحص" [2] وحتّى "النّقد السياسي " [3] عند آخرين، في حين ذهب فريق ثالث إلى أنّه "نتيجة التواشج العلائقي بين النّقد الثّقافي والتاريخانية الجديدة"[4] فإنّ التّسمية الأصّح هي "الشعريات الثقافية".

فالاختلاف في هذا النقد يبدأ من تعدّد المصطلح، مرورا بتعدّد المرجعيات، و انتهاءً بتشعّب المفاهيم وعدم وجود حدود معرفيّة للنّقد الثقافي، ممّا جعله يتداخل مع حقول معرفية قريبة منه، و ربّما بينهما "تراسل" معرفي، في ظلّ ما يعرف بالدراسات البينية، وربّما أقرب هذه الحقول إليه هي "نقد الثقافة" على إطلاقها، وقد يعود السبب المباشر لتداخل هذين المجالين المعرفيين هو التقاؤهما على نقطة الاشتغال و هي "الثقافة" في عمومها.

ومع ذلك، يحاول الدّارسون وضع حدود منهجية فاصلة بين هذين المجالين المعرفيين انطلاقا من تحديد مفهوم كلّ منهما، وتحديد مفهوم الثقافة قبلهما. فما هو مفهوم الثقافة؟ وما حدّ النقد الثقافي و نقد الثقافة؟ و كيف تمظهر هذان المجالان المعرفيان في المشاريع النقدية العربية؟

2. في مفهوم الثقافة:

رغم اختلاف مصطلح "الثقافة" وتباعده بين المعجمين العربي والغربي، ولكن بداية دلالة المصطلح متقاربة؛ حيث نجدها:

2-1. في المعاجم العربية:

فإذا رجعنا للسان العرب مادة(ث، ق، ف) وجدنا: ثَقَفَ: ثَقِفَ الشيء ثَقْفًا ثِقَافًا و ثقوفة: حذقه (...)، رجل ثَقْفٌ لَقْفٌ وثَقِفٌ لَقِفٌ وثَقِيفٌ لَقِيفٌ بين الثّقافة واللّقافة (...) و ثُقُفَ الرجل ثقافَة أي صار حاذقا خفيفا (...) و منه المثاقفة (...) وثقِفْنا فلانا في موضع كذا أي أخذناه، ومنها قول الشاعر:

فإمّا تَثِقْفُوني فاقْتُلوني فَإِنْ أَثْقَفْ فَسَوْفَ تَرَوْنَ بَالِي.

والثِّقاف والثقافة : العمل بالسيف(...) والثِّقاف حديدة تكون مع القواس والرماح يقوّم بها الشيء المعوّج[5].

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى قاموس أكثر حداثة نسبيّا (زمنيّا) وهو القاموس المنجد (باعتباره حديث الصدور) ألفينا: " الثقافة: التمكن من العلوم والفنون والآداب، والمثقّف: الرمح في عرف الشعراء"[6].

من خلال استعراض المعنى المعجمي لكلمة (ثقافة)، نجد معانيها اللّغوية تتعدّد بتعدّد استعمالاته وتوظيفاتها، لكنّها بالمجمل تبقى بعيدة عن معناها المعاصر، سواء في العلوم الاجتماعية أو اللّغويات.

إنّ الملاحظة الأخرى التّي نستقيها من المعنى المعجمي، هو ارتباط التثقيف بحوائج البيئة العربية، كما هو الأمر بالنّسبة للفحل وبيت الشعر والوزن والقافيّة وغير ذلك من مسمّيات البيئة العربية، ولو تمعّنا بالمعاني الأخرى للكلمة من مثل الفطنة والذكاء والحذق...إلخ، أمكننا الرّبط بينها وبين معناها المعاصر، أو على الأقلّ معناها المضمّن في القاموس المنجد، والأرجح أن يعتبر المعنى المعاصر لكلمة من قبيل التطوّر الدلالي الذّي يحدث للكلمات، وهو الأمر الذّي لا يمكن لنا إثباته، ونكتفي بالتّأسف لغياب معجم عربي تاريخي، كما تأسّف من قبلنا مالك بن نبي وهو يتحدّث عن مشكلة الثقافة في العالم الإسلامي خاصّة،والعربي عموما، إذ ينفي الرّجل ورود هذه الكلمة حتّى " في لغة ابن خلدون الذّي يعتبر – على أيّة حال- المرجع الأوّل لعلم الاجتماع العربي في العصر الوسيط"[7].

ويرجع هذا النّفي لكون الكلمة قد جاءتنا من أوروبا، لكنّه بالمقابل يؤكّد على " أنّ الثّقافة بوصفها حضورا كانت موجودة في روما وأثينا، كما كانت في دمشق وبغداد، ولكن ليس بوصفها تحديدا وتشخيصا لواقع اجتماعي أو تعريفا لفكرة ثقافة"[8].

ومن أبرز العلامات على استعارة المصطلح من الغرب، يوكّد المفكّر الجزائري، أنّ كلمة ثقافة لم تكتسب بعد قوة التحديد، ولذلك فعند كتابتها تكون دائما مقرونة باللّفظة الأجنبية " Culture"، وكأنّ الثقافة كلمة لا تزال من اللّغة العربية تحتاج إلى عكاز أجنبي مثل كلمة culture كي تسير[9]، فالكلمة الأجنبية عبارة عن دعامة تشدّ من أزر الكلمة العربية في عالم المفاهيم.

2-2. المعاجم الغربيّة:

يشير "تيري ايغلتون" إلّى أنّ " الجدر اللاتيني لكلمة "Culture" هو"Colere " الذي يمكن أن يعني أشياء كثيرة، تترجّح بين الحراثة والسكنى إلى العبادة والحماية. ولقد تطوّر المعنى الذّي يفيد " السّكنى " من الكلمة اللاتينية Colonus : المستعمرة أو الجالية إلى ال " Colonialism " المعاصرة[10]، والتّي عرفت عربيّا بالكولونيالية المعاصرة أو الاستعمار المعاصر.

أمّا المعنى الآخر الذّي تفيده كلمة ثقافة غربيا، فيمتد إلى الجدر " Cult " الذّي يعني العبادة أو الطريقةالدينية، وقد تطوّر هو الآخر من"Colere " عن طريق الكلمة اللاتينية "Cultus" لينتهي إلى "Cult"، هذا المعنى للثقافة حسب "ايغلتون" يمتد إلى العصر الحديث ليحلّ محلّ الألوهية والتعالي الذّي أخذ بالذبول والتلاشي[11].

على مستوى تاريخ استعمال الكلمة، يعدّ الألمان أوّل من استعمل اللّفظ، فقالوا "Kulur" ، وفهموها بمعنى الحضارة، وعلى هذا الأساس تمّ استعمالها لزمن طويل، و قد أخذوا اللّفظ من اللاتينيّة، التّي يرد فيها

بمعنى: إصلاح الشيء وتهذيبه وإعداده للاستعمال، ومن هنا قالوا: "Agri- Culture"، أي إصلاح الأرض وزراعتها. ثمّ استعملت اللّفظة في الأدب اللاتيني المسيحي بمعنى" تهذيب الرّوحCultura Animi "[12].

من المستوى اللّغوي أو المعجمي للمصطلحين عربيّا وغربيّا نلاحظ استقاء الكلمتين من الطبيعة أوّلا، ومحاولتهما العمل على التهذيب ثانيّا، وهذا ربّما ما يؤكّد فرضية أنّ الطبيعة والثقافة متكاملتان وليستا متضادتين.

2-3. تركيب:

لقد انتقل مفهوم الثّقافة من إصلاح الأرض إلى إصلاح النّفوس وتهذيبها، وبهذا فقد سارت دلالة الكلمة من الزراعة والفلاحة لتستقرّ عند أرهف النّشاطات البشرية وأرقها. وفي هذا كتب "فرانسيس بيكون" عن: The Culture And Manurance Of Minds أي " تثقيف العقول وتهذيبها " وقد علقت بهذه الكلمات صفات أخرى مثل "moral " : أخلاقي و " intellectual ": فكري، إلى أن جاء "ماثيو أرنولد" في القرن التاسع عشر، وحددها في كتابه "Culture and anarchy": "الثّقافة والفوضى" على "أنّها محاولتنا الوصول إلى الكمّال الشامل عن طريق العلم بأحسن ما في الفكر الإنساني، ممّا يؤدي إلى رقي البشريّة"[13].

3- مفهوم النقد الثقافي:

إذا كان النقد الثقافي في أبسط تعريفاته، ينظر إليه ك "فرع من فروع النّقد النصوصي العام، ومن ثمّ فهو أحد علوم اللّغة وحقول(الألسنية)، معني بنقد الأنساق المضمرة التّي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي، وغير مؤسساتي، وما هو كذلك سواء بسواء"[14].

إنّ هذا التّعريف للنّقد الثقافي يجعله نقدا ذا مرتكز لغوي لساني محظ، باعتباره جزء من علوم اللّغة وفرعا من اللّسانيات أو قد يكون على وجه التّحديد " النّقد اللّساني"، والنّقد اللّساني للثقافة مستقى بوجه خاص من التحليلات والدراسات البنيويّة و ما بعد البنيوية التّي تأثرت بكتابات عالم اللّغة السويسري "فيرديناند دو سوسير" وكتابه الشهير "دروس في الألسنية العامّة Cours de l'inguistique géneral"، ومن هنا، جاء اهتمام الدّارسين بالثقافة والأنشطة الثقافيّة على أنّها "(نصوص) ينبغي (قراءتها) وتفسيرها بدلا من أن تكون أفعالا وممارسات يكتفي برصدها ووصفها وإبراز العلاقات المتبادلة بينها والتّي تعطيها وحدتها الكلّية المتكاملة"[15].

وتأتي أهمية المفهوم السّابق للنّقد الثقافي، في إبرازه للمحاور التّي يقوم عليها هذا النّقد؛ إذ أنّ عمله يقوم على الأنساق المضمرة، وهو يدرس الخطاب المؤسساتي وغيره، إلاّ أنّه بتركيزه على اتجاه واحد من اتجاهات الدراسة يقصي بالضرورة الاتجاهات الأخرى، ذلك أنّ التّصوّر السائد حول دراسة الثقافة، اتجاهها نحو أربع مسارات رئيسية،حيث تتوجّه بصفة أوّلية نحو عوالم المعنى والرمزية واللّغة والخطاب[16].

إنّ الاتجاه الأكثر شيوعا في دراسة المعنى هو الفينومينولوجيا أو الظاهراتيّة، في حين اتجهت الأنثروبولوجيا الثقافيّة إلى دراسة الرمزية أو العلاقات الرّمزية وركّزت البنائية(البنيوية) على اللّغة، وأمّا الخطاب فقد أحاطته بالدّراسة النّظرية النّقدية.

وفي اتجاه مغاير لمحاولة حصر وتحديد النّقد الثقافي في إطار معيّن، يتجه النّقاد الثقافيون إلى الانفتاح والتحرر " إذ؛ النّقد الثقافي ليس منهجا بين مناهج أخرى، أو مذهبا أو نظريّة، كما أنّه ليس فرعا أو مجالا متخصّصا بين فروع المعرفة ومجالاتها، بل هو ممارسة أو فاعليّة تتوّفر على درس كل ما تنتجه الثقافة من نصوص سواء أكانت ماديّة أم فكريّة ، ويعنيّ النّص هنا كلّ ممارسة قولا أو فعلا تولّد معنى أو دلالة"[17].

يريد النّقد الثقافي الانعتاق من قيود المناهج التي تكبّل وتتزمّت وكثيرا ما تغالي أو تنساق وراء إيديولوجية ما قد تكون سببا في زوالها، لذلك يرفض النقد الثقافي الانضواء تحت أيّ منهج أو مذهب أو نظريّة أو فرع معرفيّ مخصوص، وعليه فقد "ظلّ نشاطا عائما تدخّل تحت مظلّته ألوان مختلفة من الملاحظات والأفكار والنّظريات"[18].

إنّ هذا التّحرر النظري من ربق الانتماء، يقابله إشكالية تطرح على المستويين النّظري والتّطبيقي، فعلى المستوى النّظري يتمّ التساؤل حول علاقة النّقد الثقافي بما سبقه من نقود ومناهج ونظريات وفروع معرفيّة، هل هي علاقة قطيعة أم تقاطع؟

4- نقد الثقافة بين حدّ المصطلح وشمولية المفهوم:

كما اتضح من خلال عرضنا لمفهوم الثقافة الواسع والمتشعب، هذا المفهوم الذي شمل كلّ شيء حتى لم يعد يدلّ على معنى محدد ومضبوط، وذلك لميوعة استعماله لدى الدارسين من جهة، وتوسع "الثقافة" ذاتها في الحياة الواقعية للأفراد.

وعادة، لا يتمّ التفريق بين مصطلحي "نقد الثقافة" و "النقد الثقافي" ممّا يؤدي إلى خلط بين المجالين المعرفيين اللذين يحيل عليهما المصطلحان، حيث يؤكّد الناقد السعودي "عبد الله الغذّامي" على وجود اختلاف بينهما، وإن كان كلاهما ينضوي تحت مجال الدّراسات الثقافية.

إن الفهم الذي يقدّمه الغذّامي لـ"نقد الثقافة" هو ذلك الذي يتبناه "كلنر" في رؤيته النّقدية التي يسميها "نقد ثقافة الوسائل"، حيث يأخذ الثقافة كمجال للدّراسة "بحيث لا يجري تفريق بين نصّ راقٍ وآخر هابط و عدم الانحياز لأي منهما، و لا بين الشّعبي و النخبوي، وذلك لتجنّب الموقف الأيديولوجي الذي يتضمّنه مصطلح (جماهيري) و (شعبي)، مع الأخذ بالاعتبار أنّ الاتفريق ممكن، إذا كان لأسباب استراتيجية تقتضيه بعض النّصوص"[19].

إنّ هذه التسمية حسب "كلنر" تبعد الدراسة الثقافية عن المجال الإيديولوجي الذي يرتبط بالجماهيرية أو الشعبية كما وقعت في ذلك جلّ الدراسات الثقافية، كما أنّها من خلال التسمية "ثقافة الوسائل" تكسر

الحواجز التقليدية بين الثقافة و فعل الاتصال، فيُفتح المجال للنظر في الثقافة بوصفها انتاجا، و للنّظر في وسائل توزيعها و طرائق استهلاكها، ذلك لأنّ الثقافة ذات طبيعة اتصالية.

لقد تتبع ممثلي النظرية النقدية "شمولية الاغتراب والتشيؤ الصناعي والتسليع الثقافي الاستهلاكي، وأوضحوا كيف انحطّ العمل الفنّي، في ظلّ المجتمع الصناعي وظروف صناعة الثقافة وعملائها وأجهزة انتاجها والإعلام عنها، إلى حضيض السلعة في سوق الاستهلاك والمزايدة، ممّا أفقده فعله المباشر في القلوب والعقول"[20]، فقد عملت هذه الثقافة الاستهلاكية على جعل العمل الفنّي مجرد تسلية لأوقات الفراغ واستمتاع سطحي من خلال العمل على صناعة تعليب الوعي والعقل كما يصفها (هربرت شيللر).

5- المشاريع النقدية الثقافية العربية وإسقاطات المنهج:

تعدّدت الرؤى النقدية الثقافية العربية و تنوّعت واختلفت باختلاف منطلقات الباحثين وأهدافهم ومرجعياتهم المعرفية والنقدية، وكذا روافدهم الإبستيمية التي نهلوا منها، وعلى ذلك سنركّز في مداخلتنا هذه على رؤية الناقد المفكر الثقافية والناقد الأدبي الثقافي، حيث استقى الأول أفكاره من الرافد الفرانكوفوني (مالك بن نبي)، أما الثاني فاتكأ على المعطى الأنجلوسكسوني (مصطفى ناصف)،أما (عبد الله الغذّامي) فحاول الجمع بين الرافدين و تأسيس مشروعه النقدي الثقافي:

5-1. مالك بن نبي وإشكالية الثقافة:

ونرصد هنا إحدى المحاولات المبكرة ذات الوعي الكبير بمسألة الثقافة، على يد المفكر الجزائري الكبير "مالك بن نبي" في مجموعة مؤلفاته تحت عنوان "مشكلات الحضارة"، وإن كان قد خصص كتابا وأفرده للمسألة الثقافية متمثلا في "مشكلة الثقافة"، ويعد الكتاب ذا قيمة تاريخية تأسيسية في الوعي بالمسألة الثقافية العربية، و"يكاد مالك بن نبي يكون نظيرا لرايموند ويليامز في بحث المشكلة مع اختلاف المنطلقات، فابن نبي ينطلق من إشكالية الحضارة والفكر الإسلامي، أما ويليامز فينطلق من إشكالية النقد والأدب والفكر الماركسي"[21].

ومن هنا تبرز خصوصية الثقافة، وقد اختلفت المنطلقات لكل باحث، فبحث ابن نبي في سبب انحطاط العالم الإسلامي، وقد أرجعه لعاملين، أحدهما الاستعمار الذي تعرض له، وثانيهما القابلية للاستعمار، كما ذهب إلى أن تكديس منتجات العالم الغربي/الحضارة الغربية لن يؤدي بنا إلى بناء حضارة*.

وعليه كان منحى "مالك بن نبي" في النقد الثقافي/نقد الثقافة يقوم على مفهوم الاختلاف المتعارض، وليس على مفهوم الاختلاف القابل للقاء، "فالنّحنُ" تقف في هذا المجال أمام "الهُم"، وهذه النّحن ضمن هذا السياق لفعالية وجودها، لا تسعى إلا إلى التمايز عن الهُم، وهذا التمايز لن يتحقق إلا بتحقيق "النّحن" لحضورها بذاتها وحدها، وليس بأي تواصل مع الهُم، فمنحى مالك بن نبي في تفكيره هذا هو منحى يأتي وليد "منهج خطي، يقوم على وجود نقطتين قطبيتين تشكل كل واحدة منهما، بخلافها عن الأخرى، مما يعني عمليا ضرورة عدم التلاقي بين النقطتين"[22].

يذهب "بن نبي" أن كلمة "الثقافة العربية" تتخذ الكلمة الأجنبية بمثابة عكّاز تتكئ عليه حتى تصطبغ بنفس قيمتها المعرفية، مع العلم أن معظم كتابات الباحث والمفكّر كانت بالفرنسية، وهي النقطة التي يعالجها "أحمد يوسف"، حينما يذهب إلى أنّ الكتاب الذين كتبوا باللغة الفرنسية أحسن حالاً من أولئك الذين يكتبون بالعربية، ويضرب مثالاً عن ذلك بـ "مالك بن نبي" و "محمد أركون"، ويرى بأنّ اللغة "العربية لم ترق لأن تكون لغة نقد فلسفي في كتابات النقاد الجدد. وأن الحديث عن الكتابة الفلسفية في الجزائر أو في أي قطر عربي آخر يرسم ملامح حركة التغيير التي يقودها النقد الحضاري؛ فلا يمكن أن نبالغ في الحديث عن ضرورة الانتقال إلى مرحلة الحداثة وحال اللغة التي نبدع بها ونتفلسف بها، متخلّفة في هذا القطر العربي أو ذاك ضعيفة و واهنة. والأمر هنا لا علاقة له بالقطرية أوالاقليمية وإنّما الطموح إلى تأسيس الفكر النقدي يقتضي أن نضع اللّغة في أولوياتنا. فلا بدّ من الانتقال من تحديث اللغة إلى حداثتها"[23].

إنّ هذه الفكرة التي يطرحها "د/أحمد يوسف" تحتمل أكثر من رأي، فهل المشكل فعلا في اللغة التي يكتب بها أم في الكتاب أنفسهم، وإن كان الجزم بمشكلة اللغة فلماذا استطاع "ابن خلدون" أن يسمو بفكرة لغة في عصر وُسِم بالانحطاط، ولما تعلو كتابات فكرية معاصرة مثل كتابات "الجابري" في المغرب، وهنا قد ترتبط المشكلة بالمفكرين أنفسهم ولغتهم النقدية وليس باللّغة إجمالا.

لقد توالت الأعمال المؤلفات –بعد مالك بن نبي- التي كان جوهر محاورها الثقافة أو الوعي الثقافي، واختلفت طريقة تجلي هذا الوعي سواء من خلال تناول موضوع "اللغة" بوصفه مثالا لهذا الوعي، أو "التراث"، أو فكرة "المثقف" (أو النقد في حد ذاته) أو غيرها من المسائل والموضوعات الأخرى.

ففي موضوع اللغة نجد أعمالا كثيرة لنقاد الثقافة والأدب على السواء، منها عمل مهم "للسعيد بدوي" موسوم بـ "مستويات العربية المعاصرة في مصر: بحث في علاقة اللغة بالحضارة"(1973)، و عرض كل من "الجابري" و"زكي نجيب"و "بلقزيز" لموضوع اللغة، كما أسهم وأسهب في هذا الموضوع "هشام شرابي" في كتابه "النقد الحضاري" وأفرد لها فصلا تحت عنوان " لغة النقد الحضاري".

2-5. مصطفى ناصف والتأويل الثقافي:

لا يمكن أن نبحث عن الوعي في المسألة الثقافية دون التعرض لأحد أقطاب النقد العربي الحديث، وهو "مصطفى ناصف"، الذي له أكثر من عمل ينطلق فيه من وعي ثقافي عال بالأدب والنقد والمجتمع.

ففي كتابه "محاورات مع النثر العربي" بوصفه كتابا في التأويل – حسب صاحبه – "والتأويل قراءة ودود للنص، وليس للنص معنى بمعزل عن همومنا ومآزقنا ومخاوفنا وآمالنا جميعا. والثقافة المعاصرة محتاجة إلى الحوار. وكيف يتم الحوار بمعزل عن مشاركة النص القديم"[24].

ونرى كيف أن "العقاد" و"المازني" و"شكري" و"الزيات" و"طه حسين" وكثير من الأدباء والمثقفين نهلوا من الثقافة الغربية ومن النثر القديم، فصنعوا لغة حديثة عريقة، تفيد من الماضي ومن الثقافة العصرية.

أما في كتاب ناصف "النقد العربي نحو نظرية ثانية"، فنجد أن الرجل مهموم بالبحث عن (كينونتنا) والحوار مع (التراث) ومع الأجيال، وفيه يرفض الناقد الفصل التعسفي بين كلمة "النقد" وكلمة "البلاغة"، إذ أن علاقتهما هي علاقة النقد بالفلسفة، ويرى المؤلف أن البلاغة هي "عمق النقد العربي وفلسفته، وهي دراما النقد العربي كذلك"[25]، ويخلص ناصف إلى أن "البلاغة إذن نقد ثقافي"[26].

كما يشير إلى أن " النقد العربي قد يكون مفتاحا للثقافة العربية، والثقافة العربية في بعض مظاهرها قد تكون أجلى وأعمق إذا أحسنا قراءة هذا النقد"[27]، وقد يكون "ناصف" اعتمد هذا كمنطلق في كتابه هذا، إذ أنه أقام فيه حوارا خاصا مع كتابي "عبد القادر الجرجاني" "أسرار البلاغة"، و "دلائل الإعجاز"، كاشفا أن عبقرية الجرجاني الفردية وروح الجماعة يتفاعلان، ذلك أن فلسفة الكلمة في هذا الكتاب (دلائل الإعجاز) فلسفة اجتماعية. ولهذا حظي الكتاب بكل هذا الاهتمام من طرف النقاد على اختلاف توجهاتهم وكل يبحث عن التماس الخصوصية الذاتية المستقلة عن التبعية للآخر[28].

3-5. عبد الله الغذّامي والممارسة الثقافية:

لا يمكن الحديث عن النقد الثقافي عربياً دون التوقف أمام أعمال الناقد السعودي "عبد الله الغذّامي"، التي كانت عبارة عن دراسات تمهيدية لمشروعه النقدي، ونذكر هنا مؤلفاته "المرأة واللغة"، "ثقافة الوهم"، "تأثيث القصيدة"، ثم جاء جني ثمار هذه الدراسات في "النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية"، وهناك من يجعل النظرة الثقافية للغذّامي ممتدة من أول عمل نقدي له، "الخطيئة والتكفير"؛ إذ أن مقاربته لأدب (حمزة شحاتة) هي "مقاربة ناقد ثقافي يفجر متنا ثقافيا يضمر أمراضا ثقافية وقارئ ثقافي يحرق شحما ثقافيا"[29].

ويبقى عمل الغذامي (النقد الثقافي) أول عمل بالعربية –كما يشير الدارسون- يحمل في عنوانه عبارة (النقد الثقافي)، ويكرس نفسه لاكتشاف الموضوع في الثقافة العربية، ويصف عمله بأنه "مقدمة نظرية"*، وبالتالي فكل بحث عن ملامح هذا النقد في الخطاب النقدي العربي ما هو إلا بحث عن جذور الوعي بالتوجه نفسه في ذلك الخطاب، دون أن يكون القصد أن الغذامي مسبوق في عمله في العربية.

ونشير إلى أن النقد الثقافي عنده يتحدد من خلال مجموعة من الوظائف:

1- تأتي وظيفة النقد الثقافي من كونه نظرية في نقد المستهلك الثقافي، وتأتي لحظة الفعل النقدي هذه من الاستقبال الجماهيري/ القبول القرائي لخطاب ما، مما يجعله مستهلكا عموميا.

2- يتجه النقد الثقافي للمتن الثقافي والحيل النسقية التي تتوسل بها الثقافة لتعزيز قيمها الدلالية.

3- النقد الثقافي فرع من فروع النقد النصوصي العام، معني بنقد الأنساق المضمرة التي توجد في الخطاب الثقافي.

4- إن النقد الثقافي معني بكشف لا الجمالي، وإنما كشف المخبوء تحت أقنعة البلاغي/الجمالي[30].

فمشروعه كما يقرر ذلك منذ الصفحة الأولى لمتن كتابه يدور حول كشف العيوب النسقية للشخصية العربية المتشعرنة[31].

إن ما أريد التركيز عليه هنا، هو مرجعيات "الغذّامي" في مشروعه النقدي، باعتباره حصَّل السبق في مشروع تبني النقد الثقافي عربيا، في ظل الاعتراف بأن كثيرا مما يشكل الثقافة العربية الحديثة، يستند إلى "مرجعيات مستعارة " تفاعلت أسباب كثيرة فأفضت إلى ذلك التمخض الذي كان من نتيجته حركة استبدال واسعة في كثير من المفاهيم الأيديولوجية والثقافية والأدبية[32]، و الغذامي ذاته ينتمي إلى هذه الثقافة الحديثة.

إن أول ما يلاحظ هو أن المؤلف اعتمد في محاولته على "ليتش" بشكل خاص، ووقف وقفة مطولة مع ذلك الباحث، مستعيرا منه التسمية (النقد الثقافي) لأنها من وضعه، كما حدد "ليتش" خصائص النقد الثقافي ومرتكزاته وأهدافه ضمن سعيه لتدشين نقد "ما بعد بنيوي" ينسجم مع التحولات المعرفية والاجتماعية الراهنة[33] على الساحة النقدية الغربية.

إنّ المتفحص لما أسماه الغذامي "الذاكرة الاصطلاحية" يجد عرضا لبعض تطورات الفكر الغربي النقدي البنيوي، مما يتصل بالنقد الثقافي، ومما يمكن اعتباره سياقا غربيا للكتاب[34] على النحو الذي عرضنا له في جدلية النشأة والانتشار عند الغرب، والتي مثلها ثلة من الشخصيات البارزة التي تركت أفكارا رائدة عدت المنطلق في النقد الثقافي، من هؤلاء "رولان بارت"، "فوكو"، "دريدا"، "كريستيفا"، "ألتوسير"، "لاكان"، "إدوارد سعيد"، "غرينبلات"...، هذا الأخير الذي يورد "الغذامي" تأييدا لاتجاهه، ولكنه تأييد غير مباشر، حينما يعطي السرد أهمية أكثر إيجابية من الشعر في عمله، ويستشهد بديكنز في روايته "توقعات عظيمة" وهي الرواية التي يتناولها "غرينبلات"، ويشير إلى أن ديكنز صاغ أوصافا ماكرة للمتكسبين بالأدب في عصره[35]، وإضافة إلى هذا يشار إلى أن مقالة موسوعة برنستون مستوعبة في كتاب "الغذامي" عبر الأصول التي رجع إليها.

وبهذا يكون الغذامي يتحرك ضمن مجال مشبع بالممارسات المعرفية الغربية كما أشرنا، وهذا ما يجعل مشروعه مثار نقد واحتجاج من جهة، ومثار إعجاب وتقدير من جهة ثانية.

6- خاتمة:

من خلال مقالتنا التي بحثت في مفهوم الثقافة وتمظهرات النقد الثقافي ونقد الثقافة في البيئة النقدية العربية توصلنا إلى مجموعة نتائج، يمكن أن نجملها فيمايلي:

- تتحدّد الثقافية في المعجمين العربي والغربي انطلاقا من البيئة "الفلاحية" التي انطلق منها الفكر الإنساني، وتطوّر مفهوم المصطلح فيما بعد للدلالة على بعض المفاهيم المجرّدة، ليرتبط أخيرا بالفنّ والأدب والجمال، وكلّ ما له نسق مميّز مرتبط بالحياة الإنسانية، أمّا من الناحية الاصطلاحية، فقد اشتمل مصطلح الثقافة على العادات، والتقاليد، والقيم، والفن، الجمال توصيفا وتعريفا.

- النقد الثقافي هم مجموعة من الممارسات النّصية التي تتخذ من الخطاب -بمفهومه العام- مجالا تشتغل عليه، إذ أنّ النقد الثقافي ليس نظرية ولا منهجا مستقلا قائما بذاته، بل هو فعالية نقدية/نشاط نقدي يتكئ على المعطيات النقدية و المعرفية التي تبنتها الدراسات الثقافية بمفهومها العام، بحيث يكون النقد الثقافي جزءًا منها.
- نقد الثقافة ارتبط بالفكر الاستهلاكي وتشييء الإنسان؛ إذ أنّه حينما تراجع العمل الفنّي (بمفهوم الفنّ العام) جاء هذا النقد ليثور على صناعة تعليب الوعي والعقل، ويحاول إصلاح الأذواق من خلال الدفاع عن الفنّ الراقي في مقابل الفن الهابط، ونبذ الثقافة الاستهلاكية، واستبعاد فكرة الجماهيرية مقياسا لجودة العمل الفنيّ.
- من خلال المشاريع النقدية الثقافية العربية، نستطيع أن نلمس عمق الطرح الثقافي الذي يقدّمه "مالك بن نبيّ"، من خلال تشريح واقع الثقافة العربية، والبحث في مكوّناتها البنيوية والنفسية، والثورة على فساد القيم والأذواق بفعل عوامل شتى أهمّها الاستعمار الغربي ومحاولته تغريب الإنسان العربي عن بيئته الثقافية، وعليه يمكن ان نحكم على أنّ عمله هذا يدرج في عمومه ضمن "نقد الثقافة".
- أمّا مصطفى ناصف، فقد قدّم من خلال مشروعه النقدي الأدبي ممارسات نقدية يمكن أن نلحقها بالنقد الثقافي، خاصة ما تعلّق منها بتطبيقاته النقدية، ومعالجته لمصطلح الثقافة ذاته في ارتباطه بالعملية الإبداعية النصّية.
- جاء مشروع النقد الثقافي في صورته الناضجة عربّيا -رغم بعض الانتقادات الموجهة إليه- من خلال أعمال الناقد السعودي عبد الله الغذّامي، حيث جاء مشروعه متكاملا من خلال وضع الآلية الاصطلاحية، ومحاولة تجسيدها على النّص الأدبي، على الرغم من أنّه اتهم بالانتقائية في اختيار نصوصه التطبيقية.

هوامش وإحالات المقال

[1]- هشام شرابي: النّقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، د.ط، د.ت.

[2]- حسن البنا عز الدين: ملامح النّقد الثقافي في الأدب العربي، كتاب الغذّامي الناقد: قراءات في مشروع الغذّامي النقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض،ع:98/97، 1422هـ، ص 160.

[3]- عبد القادر الرباعي: تحولات النّقد الثقافي، دار جرير، عمان، ط:1، 2007م، ص 25.

[4]- يوسف عليمات: النّسق الثقافي، قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط:1، 2009م، ص8.

5- ابن منظور: لسان العرب، مج:3، دار صادر، لبنان، ط:1، د.ت، ص28.

6- لويس معلوف الياسوعي: المنجد في اللغة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ط:18، د.ت،ص 71.

[7]- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص20.

[8]- م. نفسه، ص28.

[9]- م. نفسه، ص29.

[10]- تيري ايغلتون: فكرة الثقافة، تر: ثائر ديب، دار الحوار، سوريا، د.ط، د.ت، ص15.

[11]- م. نفسه، ص15.

[12]- حسين مؤنس: الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطوّرها، عالم المعرفة(1)، الكويت، ط:2، د.ت، ص324.

[13]- م. نفسه، ص325.

[14]- عبد الله الغذّامي: النّقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط:3، 2000م، ص 84.

[15]- روبرت وشنو وآخرون: التحليل الثقافي، تر: فاروق أحمد مصطفى وآخرون، تح: أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 2009م.ص 10.

[16]- م. نفسه، ص 23.

[17]- صلاح قنصوة: تمارين في النّقد الثقافي، سلسلة الفكر، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، د.ط، 2007م، ص 11.

[18]- سعد البازعي، ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط:5، 2004م، ص 806.

[19]. عبد الله الغذّامي: النقد الثقافي، ص26.

[20]. قاسم جمعة: النقد الثقافي عند مدرسة فرانكفورت، إريك فروم أنموذجا، كتاب مدرسة فرانكفورت النقدية، جدل التحرر والتواصل والاعتراف، ابن النديم للنشر، الجزائر/ دار الروافد الثقافية-ناشرون، بيروت، لبنان، ط:1، 2012م، ص189.

21- حسن البنا عز الدين: البعد الثقافي في نقد الأدب العربي،(1975-2000م)، دراسات، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع:63، 2004م، ص132.

[*]- ينظر: كتابي مالك بن نبي شروط النهضة ومشكلة الثقافة.

22- وجيه فانوس: النقد الثقافي العربي ودراسات مرحلة ما بعد الكولونيالية، واقع الدراسات العربية الثقافية، كتاب: الدراسات الثقافية ودراسة ما بعد الكولونيالية، الدار الأهلية، الأردن، ط:1، 2008م، ص 19.

[23]- أحمد يوسف: سلطة اللغة و مركزية الخطاب الأحادي، مجلة مخبر الفلسفة وتاريخها، جامعة وهران، دار الغرب، الجزائر، ط:1، 2004م ، ص52.

24- مصطفى ناصف: محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة(218)، د.ط، الكويت، فبراير1997م، ص 7.

25- مصطفى ناصف: النقد العربي نحو نظرية ثانية، عالم المعرفة (255)، الكويت، د.ط، 2000م، ص 16.

26- م. نفسه، ص 53.

27- م. نفسه، ص 15.

28- حسن البنا عز الدين: البعد الثقافي في نقد الأدب العربي، ص 169.

29- إدريس جبري: الإمكانات والعوائق في المشاكلة والاختلاف، كتاب الغذامي الناقد، قراءة في مشروع الغذامي النقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض،ع:98/97، 1422هـ، ص 34.

*- يقول الغذامي أن هذه العبارة سقطت من الناشر، والمخطوط يحتويها.

30- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، ص 81-84.

31- م. نفسه عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، ص 7.

32- عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، ص 534.

33- معجب الزهراني: النقد الثقافي نظرية جديدة أم مشروع متجدد، كتاب الغذّامي الناقد: قراءات في مشروع الغذّامي النقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض ،ع:98/97، 1422هـ، ص 467 .

34- ميجان الرويلي، سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ط:7، ص 309.

35- حسن البنا عز الدين: ملامح النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص 110.

المصادر والمراجع:

1- ابن منظور: لسان العرب، مج:3، دار صادر، لبنان، ط:1، د.ت.

2- تيري ايغلتون: فكرة الثقافة، تر: ثائر ديب، دار الحوار، سوريا، د.ط، د.ت.

3- حسين مؤنس: الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطوّرها، عالم المعرفة(1)، الكويت، ط:2، د.ت.

4- روبرت وشنو وآخرون: التحليل الثقافي، تر: فاروق أحمد مصطفى وآخرون، تح: أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 2009م.

5- سعد البازعي، ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا و مصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط:5، 2004م.

6- عبد القادر الرباعي: تحولات النّقد الثقافي، دار جرير، عمان، ط:1، 2007م.

7- عبد الله الغذّامي: النّقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط:3، 2000م.
8- صلاح قنصوة: تمارين في النّقد الثقافي، سلسلة الفكر، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، د.ط، 2007م.
9- لويس معلوف الياسوعي: المنجد في اللغة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ط:18، د.ت.
10- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
11- مجموعة مؤلفين: الدراسات الثقافية ودراسة ما بعد الكولونيالية، الدار الأهلية، الأردن، ط:1، 2008م.
12- مجموعة مؤلفين: كتاب الغذامي الناقد، قراءة في مشروع الغذامي النقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ع:98/97، 1422هـ.
13- مجموعة مؤلفين: مدرسة فرانكفورت النقدية، جدل التحرر والتواصل والاعتراف، ابن النديم للنشر، الجزائر/ دار الروافد الثقافية-ناشرون، بيروت، لبنان، ط:1، 2012م.
14- مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع:63، 2004م.
15- مجلة مخبر الفلسفة وتاريخها، جامعة وهران، دار الغرب، الجزائر، ط:1، 2004م.
16- مصطفى ناصف: النقد العربي نحو نظرية ثانية، عالم المعرفة (255)، الكويت، د.ط، 2000م.
17- مصطفى ناصف: محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة(218)، د.ط، الكويت، فبراير1997م.
18- هشام شرابي: النّقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، د.ط، د.ت
19- يوسف عليمات: النّسق الثقافي، قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط:1، 2009م.